وقد قال سبحانه فى أواخر سورة يوسف :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يوسف]

ثم وصف القرآن الكريم ، فقال تعالى :

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ(١) وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [يوسف]

وهكذا نرى أن الحق سبحانه لا يريد الكَسْب منكم ، لكنه شاء أن يُنزل هذا الكتاب لتكسبوا أنتم :

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾ [الرعد]

أى : أن أكثر مَنْ دعوتَهُم إلى الإيمان بهذا الكتاب الحق لا يؤمنون بأنه نزل إليك من ربك ؛ لأنهم لم يُحسنوا تأمُّل ما جاء فيه ؛ واستسلموا للهَوَى . وأرادوا السلطة الزمنية ، ولم يلتفتوا إلى أن ما جاء بهذا الكتاب هو الذى يعطيهم خير الدنيا والآخرة .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾

(١) افترى القول : اختلقه واخترعه . وافترى عليه الكذب : اخترعه . قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. (٣٨) ﴾ [يونس] أى : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه . [القاموس القويم ٢ / ٨٠] .

وكلمة « الله » عَلَمٌ على واجب الوجود ؛ مَطْمورة فيه كُلُّ صفات الكمال ؛ ولحظةَ أنْ تقول « الله » كأنك قُلْتَ « القادر » « الضار » « النافع » « السميع » « البصير » « المُعْطى » إلى آخر أسماء الله الحسنى .

ولذلك قال ﷺ : « كُلُّ عمل لا يبدأ باسم الله هو أبتر[١] »[٢] .

لأن كل عمل لا يبدأ باسمه سبحانه ؛ لا تستحضر فيه أنه سبحانه قد سَخَّر لك كُلَّ الأشياء ، ولم تُسخِّرْ أنت الأشياء بقدرتك .

ولذلك ، فالمؤمن هو مَنْ يدخل على أيِّ عمل بحيثية « بسم الله الرحمن الرحيم » ؛ لأنه سبحانه هو الذى ذَلَّلَ للإنسان كل شىء ، ولو لم يُذلِّلها لَمَا استجابتْ لك أيها الإنسان .

وقد أوضح الحق سبحانه ذلك فى أمثلة بسيطة ؛ فنجد الطفل الصغير يُمسك بحبل ويربطه فى عنق الجمل ، ويأمره بأن « ينخّ » ويركع على أربع ؛ فيمتثل الجمل لذلك .

ونجد البرغوث الصغير ؛ يجعل الإنسان ساهراً الليل كُلَّه عندما يتسلل إلى ملابسه ؛ ويبذل هذا الإنسان الجَهْدَ الجَهيد ليُمْسك به ؛ وقد يستطيع ذلك ؛ وقد لا يستطيع .

وهكذا نعرف أن أحداً لم يُسخِّر أىَّ شيئ بإرادته أو مشيئته ،

---

(١) البتر : استئصال الشيء قطعاً . وكل أمر انقطع من الخير أثره ، فهو أبتر . والبتر : أصله القطع الحسى والقطع المعنوى من الخير . [لسان العرب ـ مادة : بتر ، القاموس القويم ٥٤/١] .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٣٥٩/٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه : « كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر ، أو قال : أقطع » .

ولكن الحق سبحانه هو الذى يذلِّل كُلَّ الكائنات لخدمة الإنسان .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

وأنت حين تُقبل على أىِّ عمل يحتاج إلى قدرة فتقول : « باسم القادر الذى أعطانى بعض القدرة » .

وإنْ أقبلتَ على عمل يحتاج مالاً ؛ تقول : « باسم الغنى الذى وَهَبنى بعضاً من مال أقضى به حاجاتى » .

وفى كل عمل من الأعمال التى تُقبل عليها تحتاج إلى قدرة ؛ وحكمة ؛ وغنىً ، وبَسْط ؛ وغير ذلك من صفات الحق التى يُسخِّر بها سبحانه لك كُلَّ شىء ؛ فشاءتْ رحمتُه سبحانه أنْ سَهَّل لنا أن نفتتح أىَّ عمل باسمه الجامع لكل صفات الجمال والكمال « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ولذلك يُسمُّونه « عَلَمٌ على واجب الوجود » .

وبقية الأسماء الحسنى صفات لا توجد بكمالها المُطْلق إلاَّ فيه ؛ فصارتْ كالاسم .

فالعزيز على إطلاقه هو الله . ولكنَّا نقول عن إنسان ما « عزيزُ قومه » ، ونقول « الغَنىّ » على إطلاقه هو الله ، ولكنْ نقول «فلان غنىّ » و « فلان فقير » .

وهكذا نرى أنها صفاتٌ أخذتْ مرتبة الأسماء ؛ وهى إذا أُطلقَتْ إنما تشير إليه سبحانه .

وعرفنا من قَبْل أن أسماء الله ؛ إما أن تكون أسماءَ ذات ؛ وإما أن تكون أسمـاءَ صفـات ؛ فإنْ كان الاسم لا مـقابل له فـهو اسمُ ذات ؛ مثل : « العزيز » .

أما إنْ كان الاسم صفةَ الصفة والفعل ، مثل « المُعز » فلا بُدَّ أن له مقابلاً ، وهو هنا « المُذلّ » .

ولو كان يـقدر أنْ يُعزَّ فـقط ؛ ولا يقدر أن يُـذلَّ لما صار إلـهاً ، ولو كـان يضـر فقط ، ولا ينـفع أحداً لَمَـا اسـتطاع أن يكون إلهـاً ، ولو كان يقدر أنْ يَبسُطَ ، ولا يقدر أن يقبض(١) لما استطاع أنْ يكون إلهاً .

وكل هذه صفات لها مُقَابلها ؛ ويظهر فـعلها في الغير ؛ فسبحانه ـ على سبيل المثال ـ عزيزٌ في ذاته ؛ ومُعزٌّ لغيره ، ومُذلٌّ لغيره .

وكلمـة « الله » هي الاسم الجـامع لكل صـفـات الكمـال ، وهناك أسماء أخرى علَّمها الله لبعض من خلقه ، وهناك أسماء ثالثة سنعرفها إنْ شاء الله حين نلقاه :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ(٢) (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

ونلحظُ أن الحق سبحانه بدأ هذه الآية بالحديث عن العالم العُلْوي أولاً ؛ ولم يتحدث عن الأرض ؛ فقال :

---

(١) قـال الحليمي في مـعنى البـاسط : أنه الناشر فـضله على عـباده يرزق من يشـاء ويوسع ويجود ويُفـضل ويمكّن ويُخوّل ويعطي أكثر ممـا يُحتاج إليـه . وقال في مـعنى القابض : يطوي بره ومعـروفه عمَّنْ يريد ويُضيق ويُقـتّر أو يحرم فيـفقر . ذكره القرطبي فـي كتابه « الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » (١/٣٦٠) .

(٢) نضر الوجه : حَسُن وكان له رونق وبهجة . ويـقول تعالى : ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) ﴾ [الإنسان] . أي : وأكسب الله وجوههم نضـرة ، أي : حُسْناً وبهجـة وجمالاً . [القـاموس القويم ٢/٢٧١] .

﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ .. ﴿٢﴾﴾ [الرعد]

وكلمة « رفع » إذا استعملتَها استعمالاً بشرياً ؛ تدلُّ أن شيئاً كان فى وَضْع ثم رفعتَه عن موضعه إلى أعلى ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف]

فقد كان أبَوا يوسف فى موضع أقلّ ؛ ثم رفعهما يوسف إلى موضع أعلى مما كَانَا فيه ، فهل كانت السماء موضوعة فى موضع أقلّ ؛ ثم رفعها الله ؟ لا ، بل خلقها الله مرفوعة .

ورحم الله شيخنا عبد الجليل عيسى الذى قال : « لو قلت : سبحان الله الذى كبَّر الفيل ؛ فهل كان الفيل صغيراً ثم كبَّره الله ؛ أم خلقه كبيراً ؟ لقد خلقه الله كبيراً . وإنْ قلت : سبحان الله الذى صغَّر البعوضة ؛ فهل كانت كبيرة ثم صغَّرها الله ؟ لا بل خلقها الله صغيرة » .

وحين يقول سبحانه :

﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ .. ﴿٢﴾﴾ [الرعد]

فهذا يعنى أنه خلقها مرفوعة ، وفى العُرْف البشرى نعرف أن مُقْتضى رَفْع أىِّ شىء أنْ تُوجَد من تحته أعمدة ترفعه .

ولكن خلقَ الله يختلف ؛ فنحن نرى السماء مرفوعة على امتداد الأفق[1] ؛ ويظهر لنا أن السماء تنطبق على الأرض ؛ ولكنها لا تنطبق بالفعل .

---

(١) الأفق : الناحية - وخط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين . وجمعه آفاق . قال تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ .. ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت] . وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير] . أى : ما بين السماء والأرض . [القاموس القويم ١/ ٢٢] .

ولم نجد إنساناً يسير فى أىِّ اتجاه ويصطدم بأعمدة أو بعمود واحد يُظَنُّ أنه من أعمدة رَفْع السماء ؛ وهى مَرْئية هكذا ؛ فهل هناك أعمدة غير مَرْئية ؛ أم لا توجد أعمدة أصلاً ؟ .

وقد يكون وراء هذا الرَّفْع أمر آخر ؛ فقد قلنا : إن الشىء إذا رُفع ؛ فذلك بسبب وجود ما يُمسكه أو ما يَحْمله ؛ وسبحانه يقول فى أمر رفع السماء :

﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) ﴾ [الحج]

فإذا كانت مَمْسُوكة من أعلى ؛ فهى لا تحتاج إلى عَمَد ، وقوله الحق : (يمسك) يعنى أنه سبحانه قد وضع لها قوانينها الخاصة التى لم نعرفها بَعْدُ .

وقد قام العلماء المعاصرون بمَسْح الأرض والفضاء بواسطة الأقمار الصناعية وغيرها ، ولم يجدوا عَمَداً ترفع السماوات أو تُمْسكها .

والمهندسون يتبارَوْنَ فى عصرنا ليرفعوا الأسْقُفَ بغير عَمَد ؛ لكنهم حتى الآن ؛ ما زالوا يعتمدون على الحوائط الحاملة .

وهكذا نعلم أنه سبحانه إمَّا أنه حمل السماء على أعمدة أدقّ وألطفَ من أنْ تراها أعيننا ؛ ولذلك نراها بغير أعمدة ، أو أنها مرفوعة بلا أعمدة على الإطلاق .

و « عَمَد » اسم جمع ـ لا جمع ـ ومفردها «عمود» أو «عماد».

وقد جاءتْ هذه الآية بمثابة التفسير لِمَا أُجمل فى قول الحق سبحانه فى سورة يوسف :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وجاء سبحانه هنا بالتفصيل ؛ فأوضح لنا أنه :

﴿ رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢) ﴾ [الرعد]

أى : لا ترونها أنتم بِحُكْم قانون إبصاركم . ولا تعجب من أنْ يوجد مخلوق لا تراه ؛ لأن العينَ وسيلة من وسائل الإدراك ، ولها قانون خاص ؛ فهى ترى أشياء ولا ترى أشياء أخرى .

هذا بدليل أنك إذا نظرتَ إلى إنسان طوله مِتْران يتحرك مُبْتعداً عنك ؛ تجده يَصْغُر تدريجياً إلى أن يتلاشى من مجال رؤيتك ؛ لكنه لا يتلاشى بالفعل .

وهذا معناه أن قانون إبصارك مَحْكوم بقانون ؛ له مدىً مُحدَّد .

وهناك قوانين أخرى مثل : قانون السمع ؛ وقانون الجاذبية ؛ وقانون الكهرباء ؛ وكلها ظواهر نستفيد بآثارها ، ولكنَّا لا نراها ، فلا تعجب من أن يوجد شيء لا تدركه ؛ لأن قُوَى إدراكك لها قوانين خاصة .

ويشاء الحق سبحانه أن يُدلِّل على صدق ذلك بأن يجعل ما يكتشفه العلماء فى الكون من أشياء وقُوىً لم تكُنْ معروفة من قبل ؛ ولكننا كنا نستفيد منها دون أن ندرى ؛ مما يدلُّ على أن إدراك

الإنسان غَيْرُ قادر على إدراك كل شيء .

وذلك يوضح لنا أن رؤيتنا للسماء مرفوعة بغير عَمَد نراها ؛ قد يعني وجود أعمدة مصنوعة بطريقة غير معروفة لنا ؛ أو هي مرفوعة بغير عَمَد على الإطلاق .

وقول الحق سبحانه :

﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد]

هو كلام خبري ، والمثل من حياتنا حين تقول لابنك : « أنا خارج إلى العمل ؛ وذاكر أنت دروسك » ، وبذلك تكون قد أوضحت له : « ذاكر دروسك » وهذا كلام خبريّ ؛ لكن المراد به إنشائيّ .

وإبراز الكلام الإنشائي في مَقَام الكلام الخبري له ملْحظ ، مثلما تقول : « فلان مات رحمه الله » وقولك « رحمه الله » كلام خبريّ ؛ فأنت تخبر أن الله قد رحمه .

على الرغْم من أنك لا تدري : هل رحمه الله أم لا ؛ ولكنك قلت ذلك تفاؤلاً أن تكون الرحمةُ واقعةً به ، وكان من الممكن أن تقول : « مات فلان يا ربِّي ارحمه » ، وأنت بذلك تطلب له الرحمة .

كذلك قول الحق سبحانه :

﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد]

أي : دَقِّقوا وأمعنُوا النظر إليها ، وابحثوا فيما يعينكم على ذلك إن استطعتم ، وإذا لفتَكَ المتكلم إلى شيء ليُحرِّك فيك حواسَّ إدراكك ؛ فمعنى ذلك أنه واثقٌ من صَنْعته .

والمثل من حياتنا ـ ولله المثل الأعلى ، وسبحانه مُنزَّه عن أن يكون له مثل ـ حين تدخل لتشترى صُوفاً ؛ فيقدم لك البائع قماشاً ؛ فتسأله : « هل هذا صوف مائة فى المائة ؟ » فيقول لك البائع : « نعم إنه صوف مائة فى المائة ، وهاتِ كبريتاً لنشعل فتلة منه لترى بنفسك » .

ويوضِّح الحق سبحانه هنا : أن السماوات مرفوعة بغير عَمَد ؛ وانظروا أنتم ؛ بمَدِّ البصر ، ولن تجدوا أعمدة على هذا الامتداد ، وضمان عدم وجود أعمدة مُتحقِّق لك ولغيرك على مدى أُفُق أيٍّ منكم .

ولكُلٍّ إنسان أُفُقه الخاص على حسب قدرة بصره ، فهناك مَنْ تنطبق السماء على الأرض أمام عيونه ؛ فنقول له : أنت تحتاج إلى نظارة طبية تعالج هذا الأمر .

فالآفاق تختلف من إنسان إلى آخر ، وفى التعبير اليومى الشائع يقال : « فلان ضيِّق الأفق لا يرى إلا ما تحت قدميْه » .

ولقائل أن يقول : إن هذا يحدث معى ومع مَنْ يعيشون الآن ؛ ولا أحد يرى أعمدة ترفع السماوات ؛ فهل سيحدث ذلك مع مَنْ سيأتون من بعدنا ؟

ونقول : لقد مسحتْ الأقمار الصناعية من الفضاء الخارجى كل مساحات الأرض ؛ ولم يجد أحدٌ أية أعمدة ترفع السماء عن الأرض .

وهذا دليل صدق القضية التى قالها الحق سبحانه فى هذه الآية :

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢) ﴾ [الرعد]

والسماوات جمع « سماء » وهى كل ما عَلَاك فأظلَّك ، والحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٢٢) ﴾ [البقرة]

ونعلم أن المطر إنما نزل من السُّحُب التى تعلو الإنسان ، وتبدو مُعلَّقة فى السماء ، وإذا أُطلقتْ السماء انصرفت إلى السماء العليا التى تُظلِّل كل ما تحتها .

وحين أراد الناس معرفة كُنْه السماء ، وهل لها جِرْم[1] أم ليس لها جِرْم ؛ وهل هى امتداد أجواء وهواء ؟ لم يتفق العلماء على إجابة.

وقد نَثَر الحقُّ سبحانه أدلة وجوده ، وأدلة قدرته ، وأدلة حكمته ، وأدلة صَنْعته فى الكون ؛ ثم أعطاك أيها الإنسان الأدلة فى نفسك أيضاً ؛ وهو القائل سبحانه :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات]

وانظر إلى نفسك تجد العلماء وهم يكتشفون فى كل يوم شيئاً جديداً وسراً عجيباً ، سواء فى التشريح أو علم وظائف الأعضاء .

وسوف تعجب من أمر نفسك ، وأنت ترى تلك الاكتشافات التى كانت العقول السابقة تعجز عن إدراكها ، وقد يُدرَك بعضها الآن ، ويُدرَك بعضها لاحقاً.

---

(١) الجرم : الجسم والبدن . [لسان العرب ـ مادة : جرم] . والمقصود هل السماء لها أبعاد محددة تأخذ حيزاً كالأجسام ، أم هى مجرد فضاء وهواء ؟

وإدراكُ البعض للمجهول في الماضي يُؤذِن بأنك سوف تدرك في المستقبل أشياء جديدة .

وإن نظرت خارج نفسك ستجد قول الحق سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ(١) وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

ومعنى ﴿ سَنُرِيهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

أن الرؤية لا تنتهي ؛ لأن « السين » تعني الاستقبال ، ومَنْ نزل فيهم القرآن قرءوها هكذا ، ونحن نقرؤها هكذا ، وستظل هناك آيات جديدة وعطاءٌ جديد من الله سبحانه إلى أن تقوم الساعة .

وسبحانه القائل :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

وأنت حين تفكر في خَلْق السماوات والأرض ستجده مسألة غايةً في الضخامة ؛ ويكفيك أن تتحيَّر في مسألة خَلْقك وتكوينك ؛ وأنت مجرد فرد محدود بحيِّز ، ولك عمر محدود ببداية ونهاية ، فما بالُك بخَلْق السماوات والأرض التي وُجدَتْ من قَبْلك ، وستستمر من بعدك إلى أن تنشقَّ بأمر الله ، وتتكسر لحظتها النجوم .

ولا بُدَّ أن خَلْق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ،

(١) الأفق : الناحية ـ وخط التقاء السماء بالأرض في رأى العين . وجمعه آفاق . [القاموس القويم ٢٢/١] . بتصرف . والأُفْق والأُفُق : ما ظهر من نواحي الفَلَك وأطراف الأرض ، وكذلك آفاق السماء نواحيها . [لسان العرب ـ مادة : أفق] .

فالسماوات والأرض تشمل الكون كله .

وحين تُحدِّث عنها إياك أن تخلط فيها بوهمك ؛ أو بتخمينك ؛ لأن هذه مسألة لا تُدرك في المعامل ، ولا تستطيع أن تُجرِى تحليلات لمعرفة كيفية خَلْق السماوات والأرض .

ولذلك عليك أنْ تكتفي بمعرفة ما يطلبه منك مَنْ خلقها ؛ وماذا قال عنها ، وتذكر قول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء]

وقد حجز الحق سبحانه عن العقول المتطفلة أمرين ؛ فلا داعى أن تُرهق نفسك فيهما :

الأمر الأول : هو كيفية خَلْق الإنسان ؛ وهل كان قرداً فى البداية ثم تطوَّر ؟ تلك مسألة لا تخصُّك ، فلا تتدخل فيها بافتراضات تُؤدى بك إلى الضلال .

والأمر الثانى : هو مسألة خَلْق السماوات والأرض فتقول : إن الأرض كانت جزءاً من الشمس ، ومثل هذا الكلام لا يستند إلى وقائع .

وتذكر قول الحق سبحانه :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

---

(١) قفا الشيء يقفوه : مشى خلفه أو تبعه. وقوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء] . أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ، ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل في الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ٢/١٢٨] .

ولو كان الحق سبحانه قد أراد أن تعلم شيئاً عن تفاصيل هذين الأمرين لأشهد خلقهما لبعض من البشر ، لكنه سبحانه نفى هذا الإشهاد ؛ لذلك ستظل هذه المسألة لُغْزاً للأبد ؛ ولن تَحُلَّ أنت هذا اللُّغْز أبداً ؛ بل يحلُّه لك البلاغ عن الحقِّ الذى خلق .

وقد أوضح لك أنه قد خلقك من طين ، ونفخَ فيك من روحه ، فاسمع منه كيفية خَلْقك وخَلْق الكون كله .

ويدل الإعجاز البيانى فى القرآن على أن بعضاً ممَّنْ يملكون الطموح العقلى أرادوا أن يأخذوا من القرآن أدلة على صِحَّة تلك النظريات التى افترضها بعض من العلماء عن خَلْق الإنسان وخَلْق الأرض ، فيبلغنا الحق سبحانه مقدَّماً ألاَّ نصدقهم .

ويقول لنا :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً[1] (٥١) ﴾ [الكهف]

والمُضِلّ هو مَنْ يُضلُّك فى المعلومات ، هكذا أثبت لنا الحق سبحانه أن هناك مُضلِّين سَيأتون ليقولوا كلاماً افتراضياً لا أساسَ له من الصِّحة .

وأوضح لنا سبحانه أن أحداً لم يتلصَّصْ عليه ، ليعرف كيفية خَلْق الشمس أو الأرض ، ومَنْ يدعى معرفة ذلك فهو من المُضلِّين ؛ لأنهم قَفَوْا ما ليس لهم به علم .

---

(١) العضد : المعاون المساعد . وهو فى الأصل : ما بين المرفق إلى الكتف ، ويستعمل مجازاً للمعين المساعد . قال تعالى : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥) ﴾ [القصص] .أى : سنقويك به على سبيل المجاز المرسل ، فتقوية العضد تقوية للإنسان كله . [القاموس القويم ٢/ ٢٤] .

وما دام الحق سبحانه قد قال ذلك ، فنحن نُصدِّق ما قال .

وقد أثبتت التحليلات صدْق ما قاله سبحانه عن خَلْق الإنسان ، فسبحانه قد خلق الكون أولاً ، ثم خلق السيد لهذا الكون وهو الإنسان ، وكل الكون مُسخَّر للإنسان ويخدم هذا الخليفة فى الأرض ، وكل ما فى الكون يسير بنظام وانتظام .

والمُتمرِّد الوحيد فى الكون هو الإنسان ، فيأتى الحقُّ سبحانه إلى هذا المتمرِّد ؛ ليجعل الآية فيه ؛ وليثبت صدْق الغيب فى الأرض

وأوضح سبحانه أنه خلق آدم من الطين ؛ والإنسان من نسل آدم الذى سوَّاه الله ، ونفخ فيه من روحه ، وبعد ذلك أمر الملائكة ؛ من المُدبِّرات أمراً ومن الحفَظة ؛ أنْ تسجدَ للإنسان.

وهذا السجود هو إعلان الطاعة لأمر الله بخدمة الإنسان . هذا الذى بدأت حكاية خَلْقه من تراب ، ثم خُلط التراب بالماء ؛ ليصير طيناً ؛ ثم تُركَ قليلاً ليصير حَمَأ مَسْنوناً[1] ؛ ثم يجفّ الحَمأ المسنون ليصير صلْصالاً كالفخَّار ؛ ثم ينفخ فيه الحق بالروح .

فإذا ما انتهى الأجل ؛ فأول ما يُنقض هو خروج الروح ؛ ثم يتصلَّب الجثمان ، وبعد أن يُوارَى التراب يصير الجثمان رِمّة[2] ؛ ثم

---

(١) الحما والحمأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصوَّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقْل . [القاموس القويم ١/ ٢٣١] .

(٢) رمّ الميت : بلى جسمه . قال تعالى : ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس] . والرميم : الخلق البالى من كل شىء. [لسان العرب ـ مادة : رمم] .

يتسرَّب الماء الموجود فى الجثة إلى الأرض ، وتبقى العظام إلى أن تتحول هى الأخرى إلى تراب .

وهكذا يتحقق نَقْضُ كل بناء ؛ فما يُبنى فى نهاية أىِّ بناء هو ما يُنقض أولاً ، وهكذا يتأكد لنا صدق الحق سبحانه حين نرى صدق المقابل فيما أخبرنا به سبحانه عن كيفية الخلق .

وعندما يُخبِرنا الحق سبحانه أن كيفية خَلْق السماوات والأرض ليست فى مُتَناولنا ؛ فقد أعطانا من قبل الدليل على صدْق ما جاء به ، فيما أخبرنا به عن أنفسنا .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد]

وكلمة « السماوات» فى اللغة جمع ، وفى آية أخرى ، يقول سبحانه :

﴿ فَقَضَاهُنَّ[1] سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت]

وقديماً كانوا يقولون : إن المقصود بالسبع سماوات هو الكواكب السبعة : الشمس ، والقمر ، وعطارد ، والزهرة ، والمريخ ، والمُشْترى .

---

(١) قضاهن : خلقهن وأوجدهن وأنفذ إرادته بخلقهن. [القاموس القويم ٢/١٢٢] . وللقضاء معانٍ كثيرة ذكرها السيوطى فى (الإتقان ٢/١٢٨) منها : الفراغ ، فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ .. ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [البقرة] . ومنها : الفصل ، فى قوله تعالى : ﴿ لَقُضِىَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنعام] . ومنها العهد : ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [القصص] .

وشاء سبحانه أن يُكذِّب هذا القول وأصحابُه أحياء ؛ فرأى علماء الفلك كواكبَ أخرى مثل : نبتون وبلوتو ؛ وكان فى ذلك لَفْتة سماوية لمَنْ قالوا : إن المقصود بالسماوات السبع هو الكواكب السبعة .

وقد قالوا هذا القول بحُسْن نية وبرغبة فى رَبْط القرآن بالعلم ؛ لكنهم نَسُوا أن يُدقِّقوا الفهم لمَا فى كتاب الله ، فسبحانه قد أوضح أن الشمس والقمر والكواكب كلها زينة السماء الدنيا[1] ، فما بالُنَا بطبيعة وزينة بقية السماوات ؟

ويتابع سبحانه :

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ②﴾ [الرعد]

وهذه قضية هى أهمُّ قضية كلامية ناقشها علماء الكلام ؛ قضية الاستواء والعرش ، وحتى نفهم أىَّ قضية لا بُدَّ أن نُحلِّل ألفاظها لنتفقَ على معانيها ، ثم نبحثها جملة واحدة ، لكن أن نجلس لنتجادل ونحن غير مُتواردِين ومتفقين على فَهْم واحد ؛ فهذا أمرٌ لا يليق .

ولننظر الآن معنى « الاستواء » ومعنى « العرش » ، ونحن حين نستقرىء كلمة « استوى » فى القرآن نجدها قد وردتْ فى آيات متعددة .

وجاءت مرّة واحدة بمعني الاستواء . أى : النضج ، فى قول الحق سبحانه :

---

(١) يقول تعالى : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ⑥﴾ [الصافات] . ويقول أيضاً : ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ⑫﴾ [فصلت] .

﴿ ولَمَّا بلَغَ أَشُدَّهُ[1] واسْتَوَىٰ آتيْنَاهُ حُكْمًا وَعلْمًا .. (١٤) ﴾ [القصص]

أى : أنه قد بلغ نُضْجه الكمالىّ ، ويستطيع أن يكون رجلاً صالحاً لممارسة ما يُبقى نوعه ، وإنْ تزوج فلسوف يُنجب مثله ؛ وهذا استواء لمخلوق هو الإنسان .

ومرة أخرى يقول القرآن :

﴿ ذُو مرَّةٍ[2] فاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بالأُفُقِ الأَعْلَىٰ (٧) ﴾ [النجم]

والمعنى هنا هو : صعد ؛ والمقصود هو صعود محمد و جبريل عليهما السلام إلى الأفق الأعلى .

وهناك قوله الحق :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ .. (٢٩) ﴾ [البقرة]

أى : أنه سبحانه قد استوى إلى السماء ؛ وإياك أن تظن أن استواءه سبحانه إلى السماء مُسَاوٍ لاستواء البشر ؛ لأننا قُلْنا من قبل : إن كل شيء بالنسبة لله إنما نأخذه في إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

---

(١) الأشد : مبلغ الرجل الحنكة والمعرفة . قال الأزهرى : الأشد فى كتاب الله تعالى فى ثلاثة معان يقرب اختلافها . فقوله فى قصة يوسف : ﴿ولَمَّا بلَغَ أَشُدَّهُ .. (٢٢)﴾ [يوسف] فمعناه الإدراك والبلوغ . وأما قوله فى قصة موسى : ﴿ولَمَّا بلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَىٰ .. (١٤)﴾ [القصص] أى : أن يجتمع أمره وقوته ويكتهل وينتهى شبابه . وأما قوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ..(١٥)﴾ [الأحقاف] فهو أقصى نهاية بلوغ الأشد ، وقد اجتمعت حنكته وتمام عقله . [لسان العرب ـ مادة : شدد] . بتصرف .

(٢) المرة : القوة والشدة وحصافة الرأى وقوة الخلق ، مأخوذ من إمرار الحبل وإحكام فتله . قال تعالى : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦)﴾ [النجم] ، وهو وصف لجبريل عليه السلام بأنه ذو قوة . [القاموس القويم ٢/٢٢٣] .

وبذلك يكون استواؤه سبحانه إلى السماء هو استواء يليق بذاته، والاستواء المطلق شيء مختلف عن الاستواء على العرش .

وهكذا نجد استواءً لغير الله من إنسان ؛ وهناك استواء لغير الله من إنسان ومن ملك ؛ وهناك استواء من الله إلى غير العرش . وبجانب ذلك هناك استواء على العرش .

وقد وردَ الاستواء على العرش فى سبعة مواقع بالقرآن ؛ فى : سورة الأعراف ؛ وسورة يونس ؛ والرعد ، وطه ، والفرقان ، والسجدة ، والحديد .

وورد ذكر العرش فى القرآن بالنسبة لله واحداً وعشرين مرَّة، وورد بالنسبة لبلقيس أربع مرات ؛ فهو القائل سبحانه :

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

وقال :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا .. (٣٨) ﴾ [النمل]

ثم قال :

﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا .. (٤١) ﴾ [النمل]

وقال :

﴿ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ .. (٤٢) ﴾ [النمل]

وبالنسبة ليوسف قال سبحانه :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وإيَّاك أن تأخذ الاستواء بالنسبة لله على أن معناه « النُّضْج » ؛

لأن النُّضْجَ إشعارٌ بكمالٍ سَبَقه نَقْصٌ .

ولذلك نجد العلماء المُدقِّقين قد علَمُوا أن ذكْر استواء الله على العرش قد ورد فى سبعة مواضع بالقرآن الكريم وقالوا :

وَذِكْرُ اسْتواءِ اللَّهِ فِى كَلِمَاته على ... العَرْشِ فى سَبْعِ مَوَاضِعِ فَاعْدُدِ
فَفِى سُورَةِ الأعْرَاف ثُمَّةَ يُونُسَ ... وَفِى الرَّعْدِ مع طَـه فَلْلْعَدِّ أكِّدِ
وَفِى سُورَةِ الفُرْقَانِ ثُمَّةَ سَجْدَة ... كَذَا فِى الحديدِ افْهمْهُ فَهْم مُؤيَّدِ

وقالوا فى المعنى :

فَلَهُمْ مَقَالاتٌ عليْهَا أرْبعة ... قَدْ حُصِّلَتْ لِلْفَارسِ الطَّعَّانِ
وَهى اسْتقرَّ وقَدْ عَلاَ ... وكذلكَ ارتفَع مَا فِيه مِنْ نُكْرانِ
وَكذاكَ قَدْ صَعَدَ الذى هُوَ رَابِعٌ ... بِتَمَامِ أمْرٍ مِنْ حِمَى الرَّحمَانِ

والصعود إلى العرش هو حركة انتقال من وضع إلى وضع لم يَكُنْ فيه .

وهكذا نجد أن المعانى التى تتمشّى مع الاستواء فى عُرْفنا البشرى لا تتناسب مع كمال الله .

واختلف العلماء : قال واحد منهم : « سآخذ اللفظ كما قاله الله ».

ونردُّ على هذا بسؤال : وهل يمكنك أن تُغَيِّبَ :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ⑪﴾ [الشورى]

طبعاً ، لا أحدَ يستطيع ذلك ، وعليك أن تأخذ كل فَهْمٍ لشيء يخصُّ الذات العليَة فى إطار :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

ولذلك نجد أهل الدِّقة[1] يقولون : « الاستواء معلوم ، والكَيْف مجهول ، والسؤال عنه بدعة » .

فنحن نعلم معنى الاستواء ؛ ولكن كيفية استواء الله مجهولةٌ بالنسبة لنا ، والسؤال عن الكيفية بدعة ؛ لأن المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يسألوا عن تلك الكيفية ، رغم أنهم سألوا عن كثير من الأمور .

وهناك آيات متعددة[2] تبدأ بقول الحق سبحانه :

﴿يَسْأَلُونَكَ .. (١٨٩)﴾ [البقرة]

وكان السؤال وارداً بالنسبة لهم ؛ لكنهم بملكتهم العربية الفطرية قد فَهِموا الاستواء كشيء يناسب الله ، فلَمْ يسألوا عنه .

وجاء السؤال من المتأخرين الذين تمحَّكوا ، فقال واحد : سآخذ الألفاظ بمعناها ؛ فإن قال : إن له صعوداً ؛ فهو يصعد ، وإنْ قال : إن له استواء فهو يستوى .

ولمَنْ قال ذلك نردُّ عليه : إن ما تقوله صالحٌ للأغيار ، ولا يليق أن تقول ذلك عن الذى يُغيِّر ولا يتغيَّر . وإذا سألتَ عن معنى كلمة « استواء » فهو « استتب له الأمر » . وهل كان الأمر غير مستتب له سبحانه ؟

---

(١) رُوى هذا عن الإمام مالك بن أنس .

(٢) ورد هذا فى ١٥ موضعاً فى القرآن : [البقرة : ١٨٩ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢] ، [المائدة : ٤] ، [الأعراف : ١٨٧] ، [الأنفال : ١] [الإسراء : ٨٥] ، [الكهف : ٨٣] ، [طه : ١٠٥] ، [النازعات : ٤٢] .

ونقول : نحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى صفات متعددة ، وهذه الصفات كانت موجودة قبل أن يخلق الله الخَلْق والكَون ؛ فسبحانه موصوفٌ أنه خالق قبل أنْ يخلق الخَلْق ، ومُعزٌّ قبل أن يخلق مَنْ يُعزّه ، ومُذلّ قبل أنْ يخلق مَنْ يُذلّه ، وله سبحانه صفاتُ الكمال المُطْلق .

وبهذه الصفات خلق الخلق ، يقول الحق :

﴿ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه]

وكذا نؤمن بأن صفة الخَلْق كانت فى ذاته قبل أن يخلق خَلْقه، وحين خلق سبحانه السماوات والأرض أبرز الصفة التى كانت موجودة فيه وليس لها مُتعلّق ؛ فأوجد هو سبحانه المُتعلّق ، وهكذا استتبَّ له الأمر سبحانه .

إذن : إذا ذُكر استواءُ الله ، فهذا يعنى تمامَ المُرَاد له ، فصار للصفات التى كانت فيه ، وليس لها مُتعلّق أو مَقْدُور ؛ مُتعلّق ومَقْدور .

وإذا وُجِدَتْ هذه الصفة فى البشر مثل بلقيس التى وصفها سبحانه :

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ ﴾ [النمل]

فهى تختلف عن صفَة الله ؛ لأنها لم تجلس على العرش إلا بعد أن خلقها الله ، ولا يستتب الأمر لملك أو ملكة إلا بمتاعب ومعارك ، وقد ينشغل هذا الشخص فى معارك وحروب ، ثم يستتبّ له الأمر .

وهكذا يختلف استواءُ الله عن استواء خَلْق الله ، وإذا ذُكر استواء

الله على العرش ؛ فنحن نُنزِّه الله عن كل استواء يناسب البشر ، ونقول :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

واستواؤه هو تمام الأمر له ، لأن أمره صادر ، وعند تحقيق أمره في توقيته المراد له يكون تمام الأمر ، وتمام الأمر استواؤه ، أما كلمة « العرش » فنحن نجدها في القرآن بالنسبة لله .

إما مُضَافاً لاسم ظاهر :

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ .. (١٧) ﴾ [الحاقة]

وإما مُضَافة للضمير المخاطب أو الغائب :

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. (٧) ﴾ [هود]

وإما مُضَافاً للتنسيب :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٢) ﴾ [الرعد]

والتسخير هو طلب المُسخِّر من المُسخَّر أن يكون كما أراده تسخيراً ، بحيث لا تكون له رغبة ، ولا رأي ، ولا هَوَى ، والتسخير ضدُّه الاختيار .

والكائن المُسخَّر لا اختيارَ له ، أما الكائن الذي له اختيار فهو إنْ شاء فعل ، وإنْ شاء لم يفعل .

وقُلْنا قديماً : إن الحق سبحانه قد خَيَّرَ الإنسان :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ[1] مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

وبذلك قَبِل الإنسان أداء الأمانة وَقْتَ أدائها ؛ لا وَقْتَ تحمُّلها ، ووقت الأداء غَيْر وقت التحمُّل ، وضربتُ المَثَل بمَنْ يقول لصديقه : « عندى ألف جنيه ؛ وأخاف أنْ يضيعوا منِّى ؛ فاحفظهم لى معك ؛ وحين أحتاجهم اعْطِهمْ لى » .

ويقول الصديق : « هَاتِ النقود وسأعطيها لك وقت أنْ تطلبها » .

والصديق صادقٌ وقت تحمُّل الأمانة ؛ لكن ظروفاً تمرُّ عليه ، فيتصرَّف فى هذه الأمانة ؛ وحين يطلبها صاحبها ؛ قد يعجز حامل الأمانة عن رَدِّها ، وهو بذلك ضَمِنَ نفسه وقت التحمُّل ؛ لكنه لم يضمن نفسه وقت الأداء .

وكان من الواجب عليه أن يقول لصديقه لحظةَ أنْ طلب منه ذلك : « أرجوك ، ابتعد عنِّى لأنِّى لا أضمن نفسى وَقْت الأداء » .

وقد أبَتِ السماء والأرض والجبال تحمُّل الأمانة وَقْت عَرْضها ؛ وقَبِلتْ كل منهم التسخير ؛ فلا الجبال ولا السماوات ولا الأرض لها قدرة الاختيار ، ولا هَوَى لأىٍّ منها فى هذه القدرة ؛ مثلها فى ذلك مثل كل أجناس الكون ما عدا الإنسان ؛ ولم نجد فساداً فى الأرض

---

(١) اشفق من الشيء : خشى أن يناله منه مكروه . وقوله تعالى : ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] . أى : ضقن من حمل الأمانة ، ومن نتائج عدم الوفاء بحقوقها . [القاموس القويم ١/٣٥١] .

قد نشأ من ناحية المُسخَّرات .

أما الإنسان فقد قَبِل تحمُّل الأمانة ؛ لأن له عقلاً يُفكِّر ويختار ؛ ومن الاختيار ونتيجة للهوى جاء الفساد فى الكون ، ولو أقبل الإنسان على العمل وكأنه مُسخَّر خاضع لمنهج الله ؛ لاستقام عمل الإنسان مثلما يستقيم عَمَلُ كل الكائنات المُسخَّرة بأمر الله .

فإنْ أردتم أن تستقيمَ أموركم فيما لكم فيه اختيار ، فطبِّقوا قول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا[1] فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ[2] وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

وانظروا ماذا يطلب الحق منكم فى منهجه ، فإنْ نفَّذتم المنهج تَسْتقمْ أموركم ، كما استقامتْ الكائنات المُسخَّرة .

ولا يأتى الخَلَل إلا من أننا نحن البشر نقوم ببعض الأعمال باختيارنا ، وتكون مخالفة لمنهج المُشرِّع ، أما إذا كنا نؤدى أعمالنا ونضع نُصْب أعيننا قول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) ﴾ [الرحمن]

فلسوف تكون أعمالنا مُطابِقة لمنهج الله ، وسنجد فى أعمالنا ما يَسرُّنا مثل سرورنا حين نجد الأفلاك منتظمة بدقة وحساب .

إذن : فالفساد لا يأتى إلا من الاختيار غير المُرْتجى لمنهج مَنْ

---

(١) طغى يطغى : تجاوز الحدَّ . [القاموس القويم ١/٤٠٢] .

(٢) القسط : العدل. وقسط يقسط : عدل . وأقسط : عدل وأزال الظلم والجور [القاموس القويم ٢/١١٦] .

خلق فينا الاختيار ، وإن كنت تريد أن تكون مختاراً ؛ فعليك أن تلتزم بمنهج مَنْ خيَّرك .

ولذلك نجد الصالحين من خَلْق الله قد ساروا على منهج ربهم ؛ والتزموا باختيار مراد ربهم فيما لهم فيه اختيار ؛ فصاروا وكأنهم مُسخَّرون لمُرَادات الله .

وهؤلاء يسمُّونهم «العباد » لا « العبيد » ؛ فكل مملوك لله من العبيد ؛ آمن به أو كفر ؛ أطاع أو عصى ؛ أما العباد فَهُمْ مَنْ جعلوا مرادات الله هي اختيارهم ، يقول تعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا[1] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

هؤلاء هم مَن اتجهوا بالاختيار إلى ما يختاره لهم الله .

ونجد الحق سبحانه يقول في الملائكة :

﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾

[الأنبياء]

وإذا ما التزم العبد بمنهج ربه في حال الاختيار ؛ فهو لا يتساوى مع الملائكة فقط ، بل قد يسمو عنهم ؛ لأنهم مَقْهورون بالتسخير ؛ بينما تتمتع أنت بالاختيار ؛ وآثرْتَ منهج ربك .

ويقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

---

(١) الهَوْن والهُوَيْنا : التؤدة والرفق والسكينة والوقار . [لسان العرب ـ مادة : هون] .

﴿ وَسَخَّرَ[1] الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٢٩) ﴾ [لقمان]

ولحظةَ تجد التنوين مثل « كلٌّ » فهذه يعنى كُلاًّ من السابق . أى : الشمس والقمر . أما الجَرْى إلى أجَل مُسمًى ؛ فيقتضى منّا أن نفهم معنى الجَرْى ؛ وهو تقليل الزمن عن المسافة .

فحين تريد الوصول إلى مكان مُعيَّن فقد تمشى الهُوَيْنا ؛ لتصلَ فى ساعة زمن ، وقد تجرى لتقطع نفس المسافة فى نصف ساعة ؛ والجَرْى بطبيعة الحال ملحوظ ممَّن يراك .

لكن : هل يرى أحدنا الشمس وهى تجرى ؟

لا ، لأنها تجرى فى ذاتها ؛ ويُسمَّى هذا النوع من الجرى « جرى انسيابى » . أى : لا تدركه بالعين المجردة ، وهناك ما يُسمَّى « انتقال قفزى » ، وهناك ما يُسمَّى « انتقال انسيابى » .

وانظر إلى عقارب الساعة ؛ ستجد عقربَ الثُّوانى أسرعَ من عقرب الدقائق الذى يبدو ساكناً رغم أنه يتحرك ؛ وأنت ترى حركة عقرب الثوانى ؛ لأنها تتم قَفْزاً ؛ بينما لا ترى حركة عقرب الدقائق ؛ لأنه يتحرك تبَعاً لدورة هادئة من التروس داخل الساعة ؛ وكل جزئية فى حركة التُّرْس الخاص بعقرب الدقائق تتأثر بحركة تُرْس عقرب الثُّوانى ؛ والحركة القفزية لعقرب الثوانى تتحول إلى حركة انسيابية فى عقرب الدقائق .

---

(١) سخَّره : أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ .. (٥٤) ﴾ [الأعراف] . أى : مسيرات خاضعات مقهورات بأمر الله وبإرادته هو ، لا بإرادتها ولا باختيارها . [القاموس القويم ٣٠٦/١] .

وحركة كل من العقربين تتحول إلى حركة أكثر انسيابية فى عقرب الساعات ، وهذا يعني أن كل جزئية من الزمن فيها جزئية من الحركة .

وحتى فى النمو بالنسبة للإنسان أو الحيوان أو النبات ، تجد عملية النمو غير ظاهرة لك ؛ لأن الكائن الذي ينمو إنما ينمو بقدر بسيط غير ملحوظ ، وهذا القدر البسيط شائع فى اليوم كله .

وإن أردتَ أن تعرف هذه المسألة أكثر ، انظر إلى الظل ، وأنت ترى الظل واضحاً ساعةَ سطوع الشمس ، ثم ينحسر الظل بانحسار الشمس .

واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الفرقان]

أى : أن الظل متحرك وغير ثابت ، وكل جزئية من الزمن تؤثر فى حركة الشمس ، فيتأثر بها الظل .

وهكذا يجب أن نُفرِّق بين الحركة القفزية والحركة الانسيابية ، وحين تقدمنا فى العلم نجدهم يقولون : « سنزيد من الحركة الانسيابية عن الحركات القفزية » .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد]

والأجل هو المدة المحدودة للشيء ؛ وهى محدودة زمناً إنْ أردنا ظرف الزمان ؛ أو محدودة بالمسافة إن أردنا المكان .

والمقصود هنا بالأجل ؛ إما الأجل النهائى لوجود الشمس والقمر ؛ ثم إذا انشقتْ السماء كُوِّرتْ[(١)] الشمس ، وانكدرتْ[(٢)] النجوم .

أو : أن المقصود هنا بالأجل هو للتعبير عن عملها اليومى .

وقد عرفنا أن هناك مطالع متعددة للشمس ، وعلى الرغم من أن المشرق له جهة عامة واحدة ؛ لكن المطالع مختلفة ، بدليل أن قدماء المصريين أقاموا فى بعض المعابد طاقاتٍ وفتحاتٍ فى البناء .

فتطلع الشمس كُلَّ يوم من أحد هذه الطاقات ؛ فكل يوم توجد لها منزلة مختلفة عن اليوم السابق ، وتظل تقطعها ، ثم تعود مرة أخرى ، وتفعل ذلك إلى أجل مُسمَّى أى يومياً .

ونُسمِّى نحن تلك المنازل « البروج » كبرج الحَمَل ؛ والجَدى ؛ والثور ؛ والأسد ؛ والسنبلة ؛ والقوس ؛ والحوت ؛ ونحن نرصد هذه الأبراج كوسيلة لمعرفة أحوال الطقس من حرارة ، وبرودة ، ومطر ، وغير ذلك ، ذلك أن كُلَّ برج له زمن ، ويمكن تعريف أحوال الجو خلال هذا الزمن بدقة .

ولكن بعضاً من تصرفات الإنسان تفسد عملية التحديد الدقيق فى الكون ، مثلما يشعل البعض الحرائق فى الغابات ؛ فتحرق النار

---

(١) كوّر الشىء : لَفَّه على شىء مستدير ، فيقال « كوَّر عمامته » : لفَّها على رأسه . وقوله : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ .. (٥) ﴾ [الزمر] . أى : يزيد الليل فيلتف على جزء من النهار وبالعكس . [القاموس القويم ٢/١٧٧] .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) ﴾ [التكوير] . أى : تغيَّر لونها ولم يعد صافياً لامعاً ، أو تناثرت وتساقطت بسرعة كالصقور المنقضة على فرائسها عند قيام الساعة . [القاموس القويم ٢/١٥٥] .

الأكسوجين الذى يحتاجه البشر والحيوانات للتنفس ، ويحاول الغلاف الجوى أن يتوازن ، فيشُدّ كميات من الهواء من منطقة أخرى ، فيختلّ ميزان الطقس لأيام .

وكذلك يفسد الجو من التجارب الذرية التى تُجريها الدول أعضاء النادى الذرى ؛ تلك التجارب التى تقوم بتفريغ الهواء ، فتجعل الطقس غَيْرَ مُسْتقر وغير منضبط ؛ وهذا ما يفسد استخدامنا للأبراج كوسيلة لمعرفة تقلُّبات الطقس .

وقد أوجز الشاعر تلك الأبراج فى قوله :

حَملَ الثورُ جَوْزَةَ السَّرطَانِ ورَعَى الليْثُ سُنْبلَ الميزَانِ
عقْرب القَوْس جَدْى دَلْو وحُوت مَا عَرفْنَا منْ أمة السُّرْيَانِ

ويتابع الحق سبحانه فى نفس الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)﴾ [الرعد]

وسبحانه قد أوضح من أول الآية مسألة رَفْع السماوات بغير عَمَد ، واستوائه على العرش ، وتسخير الشمس والقمر ، وكيف يجرى كُلُّ شىء لأجل مُسمّى .

وكُلُّ ذلك يتطلب تدبيراً للأمر بعد أن أبرز القدرة ؛ ثم يصون ذلك كله ، فكما قَدَّر فخلق ، فهو يُدبِّر بقيوميته ، فهو القائم على كل شىء ، وسبحانه كل يوم هو فى شأن(١) .

---

(١) عن عبدالله بن منيب الأزدى قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩)﴾ [الرحمن] فقلنا : يا رسول الله ، وما ذاك الشأن ؟ قال : «أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين» أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٧٣) .

وأقول هذا المثل لأوضح ـ لا لأُشبِّه فسبحانه مُنَزَّه عن التشبيه ـ ونحن نقول : فلان فكَّر أولاً ثم دبَّر ، والتفكير هو العملية التى تبحث فيها عن الشىء لإخراج المطلوب منه ؛ كأن تأتى بقليل من حبوب القمح لتفركه بيدك لتخرج القمحة من قشرته .

هذا هو التفكير الذى يطلب منك أن تبحث وتُنقِّب إلى أن تصل إلى لُبِّ الأشياء . والتدبُّر يقتضى ألاَّ تقتنع بما هداك إليه فكرك فى نفس اللحظة ، ولكن أن تُمحِّص الأمر لترى ماذا سينتج عن تنفيذ ما وصل إليه فكرك ؟

فربما ما فكرتَ فيه يُسعفك ويُعينك فى لحظتكَ الحالية ؛ لكنه سيأتى لك بعَطَبٍ بعد قليل .

والمَثَلُ الذى أضربه على مثل هذه الحالة دائماً هو اختراع المُبيدات الحشرية ؛ ولم يَفْطنوا إلى أن هذه المبيدات لا تقتل الحشرات الضارة وحدها ، بل تُسمِّم الطيور التى كانت تفيد الفلاح .

ووصل الأمر إلى حَدِّ تحريم استخدام هذه المبيدات ؛ وجاء هذا التحريم ممن تفاخروا من قَبْل على كل شعوب الأرض باختراعهم لتلك المبيدات ، فقد فَطنوا إلى أنَّ ما جاءهم من خَير عن طريق تلك المبيدات هو أقلُّ بكثيرٍ من الضُّرِّ الذى وقع بسببها .

وهذا يعنى أنهم لم يتدبروا اختراعهم لتلك المبيدات ؛ فقاموا بتصنيعها لفائدة عاجلة ، دون أن يلتفتوا إلى الخطورة الآجلة ، وكان لا بُدَّ لهم أن يتدبروا الأمر ؛ لأن التدبُّر معناه النظر فى دُبُر الأشياء .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد]

أى : لا تنظر إلى واجهة الآية فقط ، بل انظر فى أعماقها ، ولذلك يقول لنا سيدنا عبدالله بن مسعود رضى الله عنه : « ثَوِّروا[١] القرآن » .

أى : استخرجوا منه الكنوز بالتدبُّر ؛ لأن التدبر يحمى من حماقة التفكر ، والمثل البسيط المتكرر فى بيوتنا هو أننا نغسل أفواهنا بعد تناول الطعام ونتمضمض ممَّا بَقِى فى الفم من بقايا .

ونجد من بين هذه البقايا بعضاً من « الفتافيت الصلبة بعض الشيء » ، ثم نغسل حوض المياه بتيار متدفق من ماء الصنبور ، ونُفَاجأ بعد فترة من الزمن بانسداد ماسورة الصرف الخاصة بالحوض ؛ وحين يفتح السباك ماسورة الصرف هذه يجدها مليئة برواسب من بقايا الأطعمة .

وأنت حين تمضمضتَ لم تلتفت إلا لنظافة الفَم من البقايا ، ولم تتدبر أمر تلك البقايا ، ولو أنك تدبرتَ ذلك لَقُمْتَ بتركيب ماسورة صرف للحوض أكبر من الماسورة التقليدية الضيقة ؛ ولَجعلْتَ صندوق الطرد الخاص بالحوض أكبر من الحجم المعتاد والمُجهَّز لصرف المياه فقط .

---

(١) أورد ابن منظور فى لسان العرب حديث ابن مسعود : « أثيروا القرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين » قال شمر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه » [مادة : ثور] .

وهكذا نرى أن الفكر يحثُّك علـى أن تبحث عن مطلوب لك ؛ ولكن عليك أن تنـظر وتُدقِّق : هل يحـقق لـك مـا يقـترحـه عـليك فكرك ؛ ما يفيدك أم ما يضرك ؟

هذا هو التدبُّر ، وهو ما نُسمِّيه صيانة الأشياء .

ويتابع الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾ [الرعد]

وتفصيل الآيات يعني أنه جعل لكل أمـر حُكْماً مناسباً له . ودائماً أقول لمـن يسألني عن فـتوى ؛ ويُلِحّ أن تتـوافق الفتـوى مع مراده : « نحن لا نُفـصِّل الفتـوى من أجل هواك ؛ لأن مـا عندي هي فتـاوى جاهزة ؛ وعليك أن تضبط مقـاسك أنت على الفتوى ، لا أن نُفصِّل لك الفتوى على هواك » .

أقـول ذلك ؛ لأن المسـألة ليست حـيـاة تنتهي إلى العَـدَم ، ولكن هناك حياة أخرى تُحاسب فيهـا على كل تصرُّف ، فالحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً[1] مَّنثُورًا (٢٣) ﴾

[الفرقان]

وهو القائل سبحانه أيضاً جَلَّ وعلا :

---

(١) الهبـاء : الغبار المـتطاير في الجو . قـال تعالى : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦) ﴾[الواقعة] . أي : تراباً متطايراً هنا وهناك . ومثله قوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان] . أي : كل عمل عملوه كالهباء المنثور لا يُعتدُّ به ولا قيمة له . [القاموس القويم ٢/٢٩٧] .